

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

من خليل أحمد خليل - ليون

١ - بين التجارب والحدود

حينما يتحدث فيليب سولير عن تجربة الحدود فإنه يربط بـ بارنو بطريقة مختلفة: ألا أن انسان المشكلة واحد عند الانين . ففسي صميم هذه التجربة الكاملة نجد توجه الآخر للانسان المفقود السائر في اتجاه المامرة في عالمنا المنظم - الفوضوي هذا ، حيث ارادته رفيقه الوحيد والآخر ، محاولا ان يعيد للكائن فوته ووحدهته الشخصية مكرسا لذلك حكمه وطافته . وكما ان ظهور نيشه في القرن الماضي كان علامة بحول نكري ، فن الثقافة الغربية عرفت بعده انواعا كثيرة من الثقافات والمعاهيم الادبية والفنية ونخطتها كلا أو أجزاء ، بطرق مختلفة . أما المشكلة الراهنة فتتخسر في الادعاء التالي : هل وصل الانسان الى نهاية تجربته العلمية الممكنة لامكانياته العقلية ؟ بلفسة أخرى : هل نصب الانسان ؟ - هل وصلت الفلسفة مثلا الى نهايتها بسبب نضوب الفكر البشري كما يعتقد هيدجر ومدلوبونتي ؟ مهما تكن النتيجة الحالية فان الطريق لا يزال ، كما يبدو ، مفتوحة أمام الانسان وما زال عليه واجب البحث الابدي في عالم الزمان والارادة والتفهقر .

وفيليب سولير يهتم الرواية مثلا ، بالخطا وباستخدامها له : وهذان العاملان سيؤديان الى موت الرواية . فهو يبحث عن أدب بدائي كميلوبونتي في فلسفته الاخيرة ، وعن انسان بدائي سابق للاصناف البشرية الموجودة . فالروائي يعيش قبل كل شيء في عالم حي - عالم الاحداث والازمات والاضطرابات والحروب ، وانصالة البشرية وأشلائها من أوائل الامور الضرورية في عصرنا هذا . فهو لا يستطيع ان ينسى مثلا الحرب في الفيتنام ، ذلك ان حضوره في العالم وارتباطه بحركته وتطوره دعامة رئيسية من دعائم البناء الادبي . ولربما رأى سارتر انه لا يحق لكاتب حقيقي يعيش في أيامنا هذه ان لا يتكلم عن الفيتنام او عن الحرب . وسولير لا ينكر التاريخ الذي لا يتحدث عنه ، وانما يحاول ان ينفذ اليه بطريقة الخاصة . وهو ممن يرفضون الاحداث التي تفذي الرواية - للرواية ، لانه يرفض طريقة حياة الكتاب لها .

فحين طلب بعض العلماء الفرنسيين - البروفسور مونو مثلا - اثر نيلهم لجائزة نوبل للبيولوجيا مساعدة خاصة من الحكومة ، اجابتهم هذه الاخيرة : ستمنحون المساعدات اللازمة شريطة ان نضموا لـ نجاح تجاربكم ومداهما التطبيقي . والواضح ان التجربة العلمية الصميمة لا تخدم الحكومة بهذا المعنى ، لكنها تنفع العلم : فهي حينما تفشل تكون قد دفعت العالم الى مجابهة الصعوبات بدلا من تجاهلها والسكوت عنها ، وحينما تنجح تفسح المجال امام العلم لكي يتقدم ، وكل تقدم علمي يؤثر على تغيير البنى الحياتية ، ولربما غير العلم حياتنا . وهكذا يرى سولير ان مشكلة الابحاث الادبية الجوهرية مماثلة لمشكلة التجارب العلمية . والرواية هي طريقة المجتمع في الكلام وطريقة الفرد الاجتماعية في الحياة . هكذا نجد الاصناف الروائية مكانها في هذا النظام الثقافي والاجتماعي والتكنيكي حيث تلعب الطليعة دورها الفعال . ان كل شيء منظم ومصنف في فرنسا لدرجة انه يجلب الكتابة - أو الامل - الالكتروني .

وهناك من يزعم ان الآلة ستنمكر ذات يوم روايات انسانية مشوقة تميل أعمق ما يستطيع أن يتوصل اليه الخيال - هذا الخيال سيبليغ ذروة نفاذه . وسيطلب الناس من الآلة ان تنتج لهم روايات حتى ينسوا الآلة . ولربما صار المثل الاعلى عند الانسان هو الحياة بطريقة روائية . وهذا النوع من التخيل يجعلنا نتساءل : ما هو الحد الاقصى للانسراف الانساني المتأرجح بين الحرية والتعويض النفسي ؟ ان الادب الميكانيكي هو انحطاط حقيقي بالنسبة لثورات القرن الاخير الادبية التي سمحت للادب ككل وكخط أن يبرز الى الوجود . ومن الملاحظ ان الروائيين الثوريين في عصرنا يعيشون على النتائج الحاضر مسن كتابات بروست وجويس وكافكا الذين مثلوا فاصلة تاريخية مهمة في سلسلة التجارب والحدود - الحدود التي لا نرغب في رؤيتها . لكن ما هي تلك الحدود ؟ كيف يستطيع تعبير « رواية » مثلا أن يشير اليها ؟ الرواية هي حديث الافراد الذي لا ينقطع ، الحديث اللواعي والاسطوري . وهذا الحديث قابل للاستنباط بالمعنى الفرويدي لانه يميل الى اظهار لوعي المتكلم . اذن ليس هناك رواية « حقيقية » أو « وافية » كمتسمة ، مهما تكن درجات اعتبارنا للحقيقة والواقع ، ومهما يكن الاعتراف سطوحيا أو عميقا .

واللغة تصير عاملا ثانويا بالنسبة اليها . فاما أن نقرر ان نعيش حياتنا بأنفسنا مهما كلفنا تخيل ذلك - فيحدث انقلاب مثير ، يعنى بفضل طبيعته الفريدة عالم التجربة الادبية . فماذا يمثل الادب ان لم يبلغ ذلك الانقلاب الداخلي ؟ - . واما ان نصف الاشياء بلفه غير لفتنا الشخصية ، وأن نتوهم عالما غير عالما - فتموت بذرة التجربة والحساسية . ويبدو ان مهمة الادب الحديثة هي اكتشاف الفراء . وذلك يعني أننا نطرح مشكلة الاتصال الانساني والتبادل الفكري . لذا يحسن بنا ان نذكر ان الكاتب هو نتيجة ما يكتب - النتيجة التي لا تكتمل .

نموذجان تجريبيين

فاز جاك بوريل بجائزة غونكور ١٩٦٥ . وهو شاعر وقصاص . كتب « الهيام » التي فازت بالجائزة خلال مدة طويلة على شكل مذكرات وبالمناسبة نشرت له « الادب الفرنسي » القصصيين الجديدين :

أ - الطريق

هل أدري لماذا أتردد أيضا

وأرتعش بين حلمين ؟

آه يا راية الحركات التي ترتج

على الافق الشلجي !

باطلة كل خطوة

لا يؤدي الا الى الخارج

فالطريق ثابتة

بين المصباح والموت

ب - فقاعة السلام

ناليس هي منزل الحب

وكلي قرب قسدي

يلعب ظلي

أوه يا فقاعة السلام

التي تولد في برية الاعشاب

الشمس الغربية تشرف

الاتحاد السوفياتي

ميخائيل شولوخوف

الفائز بجائزة نوبل ١٩٦٥

قبل سنوات الحرب المحمسة ، خرجت على العالم أشهر روايات شولوخوف : « الدون الهادى » و « استصلاح الأرض العذراء » . وشولوخوف واحد من أشهر وأحب الكتاب في الاتحاد السوفياتي ، ومؤلفاته تسمع بشهرة واسعة ، سواء في داخل البلاد ، أو فيما وراء حدود الاتحاد السوفياتي .

ورواياته منشورة بخمس وخمسين لغة ، وقد ظهر منها اربعمائة طبعة ، تبلغ نسخها عددا هائلا يقدر بحوالي عشرين مليونا . ولد ميخائيل الكسندروفيتش شولوخوف في ٢٤ مايو ١٩٠٥ ، في وادي الدون ، بمزرعة كروجلين ، من أسرة كادحة ، وتعلم في باديه الامر في مدرسة الكنيسة ، ثم من عام ١٩١٨ التحق بالمدرسة الثانوية . وفي سنوات الحرب الاهلية اقام شولوخوف في الدون ، وخدم في فرقة الامداد والنموين ، واشترك في النضال ضد عصابات الجيش الابيض ، وفي عام ١٩٢٠ نظم خلية شيوعية في أحد المراكز . وبعد انتهاء الحرب الاهلية استقل شولوخوف بناء ، وعاملا عاديا ، وعدادا ، و اقام بعض الوقت في موسكو .

أما النشاط الادبي للكاتب ، فقد بدأ عام ١٩٢٢ ، وفي عام ١٩٢٥ أخرج أول كتبه « أقاصيص الدون » .

وشولوخوف ينتمي الى هذا الجيل من الكتاب السوفييت الذي خلق ثورة أكتوبر والحرب الاهلية ، والبناء الاشتراكي ، والحزب الشيوعي .

ولقد وصف فادييف في احدى خطبه عن صورة المستقبل - طريق الحياة لهؤلاء الكتاب أمثال شولوخوف :

« عند انتهاء الحرب الاهلية ، كنا نجتمع من مختلف أنحاء وطننا المترامي الأطراف ، ولقد دهشنا من التشابه العام لتاريخ حياتنا ، مع اختلاف حظوظنا الفردية » ، وهكذا كان طريق فورمانوف ، مؤلف كتاب « تشاباييف » ، وكذلك كان طريق أكثر الشباب ، ومن الجائز ان يكون أكثرنا موهبة هو شولوخوف .

لقد دخلنا الى الادب موجة اثر موجة ، وكنا كثيرين ، حملنا من الحياة تجربتها ، وخصائصها ، وتوحد احساسنا بالعالم الجديد ، وجنبا له .

وبعد ظهور أقاصيصه الاولى عاد شولوخوف الى الدون ، الى المركز الاصلي : « وأحببت أن أكتب عن الشعب الذي ولدت في وسطه ، والذي عرفته » - هكذا يقول شولوخوف .

وفي عام ١٩٢٦ بدأ شولوخوف يعمل في « الدون الهادى » وظهر الكتاب الاول من هذه الرواية عام ١٩٢٨ ، والثاني عام ١٩٢٩ ، والثالث عام ١٩٢٣ ، والرابع عام ١٩٤٠ .

وقد تطلب العمل في « الدون الهادى » من الكاتب معارف عديدة الجوانب ، وجهودا كبيرة ، فلقد قرأ كثيرا ، وعمل في محفوظات موسكو ، وروستوف ، وجمال في أنحاء الاقليم ، مسجلا روايات الشيوخ ، والأغاني الشعبية . وفصول الرواية كل على حدة ، بدلها شولوخوف عدة مرات . وقد عاش شولوخوف في السنوات الاولى من عمله في الرواية حياة فاسية ، وقد استقبل الاقارب والاصدقاء الانتاج الادبي لشولوخوف أسوأ استقبال ، ونصحوه بالحاح ان يشتغل بأي عمل اخر ، وقد قال هو عن هذه الفترة : « لقد كتبت بصعوبة ، وعاشت بصعوبة ، ولكنها كتبت على أي حال » .

و « الدون الهادى » أول كتاب جعل شولوخوف واحدا من أشهر الكتاب السوفييت ، فالتطورات السريعة لاعادة التنظيم الاشتراكي في

على التهامك ايضا

فمن يعري الاموات

في الجوارير المظلمة ؟

التجربة وازمة البحث

ودعت فرنسا في ١٣ - ١٢ - ١٩٦٥ أحد علمائها الكبار : جورج دافيديتش غيرفيتش ، ثاني مؤسسي المدرسة الاجتماعية الفرنسية الحديثة . ويعتبر غيرفيتش ان المجتمع في ثورة متواصلة وان بناءه في حالة انتظام وتهدم فعودة الى الانتظام . علم الاجتماع وهو يكلم الحرية . ونالوت عالم الاجتماع الحقيقي هو : التجربة والنسبية والديالكتيك . حاول ان يتخطى كل المفاهيم القديمة في علم الاجتماع فخلق لغة جديدة يعرفها العاملون في هذا الحقل . أهم تهمة وجهت اليه هي ابتعاده عن العالم التجريبي وتجنبه لازمة البحث وانكماشه في عالم نظري خاص . الا ان غيرفيتش بنظرنا قد طور علم الاجتماع بتعميق المفهوم الديالكتيكي - وان كان سادتر غير مقتنع كثيرا بهذه الديالكتيكية - . وفتح الطريق الواسعة أمام الباحثين . وهذا يكفيه . وقد عرف بموقفه المشرف ازاء الشعب العربي المناضل في الجزائر مما عرضه لنقمة منظمة الجيش السرية . له عدة مؤلفات وهو مؤسس ومدير « دفانز علم الاجتماع » الشهيرة . وفي مقابلة معه عام ١٩٥٩ حول أزمة علم الاجتماع قال :

« اني اميز بين اتجاهين كانا في أساس هذه الازمة . الاتجاه الاول هو ابحاث علم الاجتماع « الصناعي » والاتجاه الثاني هو الابحاث الاحصائية وسير الرأي العام او « علم النفس الاجتماعي » . فاذا كان الناس الذين يديرون هذه الابحاث سائرين نحو الانتصار فان علم الاجتماع الفرنسي سيندر . ان الامر خطر جدا ، ذلك ان لدينا عددا محدودا من الجامعات . وان الامر أقل خطورة في الولايات المتحدة الاميركية التي تملك ١٢٠٠ جامعة . ان سيطرة ميول كهذه تؤدي الى عقيدة أبوية السيطرة والى توضيح الامر التالي : كيف يمكن استخدام البشر ؟ وقد قالوا بان العمل وحدة اقتصادية - وهو ليس كذلك - بدلا من اعتباره كوحدة صناعية فقط . ان علم الاجتماع في نطاق الصناعة الذي يرمي ، كما يقولون ، الى تحسين التكنيك والوصول الى أفضل شروط للعمل ، انما ينتج في الحقيقة نحو أفضل مردود (وهذا يعني تجاهل العوامل الانسانية والعائلية والتربوية في الانتاج الصناعي) . وأخيرا يبدو انهم تجاهلوا الامور الرئيسية التالية : ان المجتمع الفرنسي مجتمع رأسمالي وان وسائل الانتاج بيد أجهزة خاصة . ان علم الاجتماع الاقتصادي يؤدي الى حرب نفسية ضد وعي الطبقات والنقابات من جهة والى انتروبولوجيا خاطئة ودعية من جهة أخرى - مبدئية بكاملها » .

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر

أنه يتتبع حقيفة الحياة القاسية ، ويكتشف عملها بجميع تناقضاته ،
وجميع تعقيداته ، وجميع جوانبه المتعددة ، وجميع تناقضاتها ، وما فيها
من حدة الصراع الناشبة عن القضايا الصعبة المعقدة ليلاد عالم جديد .
وهذه هي القاعدة الفنية المصرية التي تمسك بها شولوخوف في أصرار
كأعظم نموذج للواقعية الاشتراكية .

أقاصيص الدون

الموضوع الرئيسي لهذه الأقاصيص المبكرة لشولوخوف هو صراع
الطبقة المناضلة في الدون .

وليست العلاقة بين أفرادها منحصرة في الوطن او الشاعر ، بل
ان موقع الناس من الصراع الطبقي العنيف هو الذي يحدد العلاقة بينهم .
وليس من النادر ان يصير الآباء والابناء والأخوة الد الأعداء في
سبيل الوطن .

ففي قصة « كولوفيرت » نرى القوزاقي العجوز كرامسكوف ،
وولده - من المنضمين الى الأحمر - يقمان في أسر الحرس الأبيض ،
فيقدمهما الابن الأصغر ميخائيل - الضابط الأبيض - رميا بالرصاص .
وفي قصة « مزرعة البطيخ » نرى الاب - رئيس المحكمة العسكرية
لفرق الحرس الأبيض ، والجلاد الجهنمي ، وابنه فيدور - الجندي
في الجيش الأحمر ، وترى البيض يطاردون فيدور الجريح القسدم ،
ويكشفه الاب في مزرعة البطيخ ، فيتأهب للتكيد به ، وحينئذ يفتال
الابن الأصغر ميتيا أباه من أجل ان يخلص أخاه .

وفي قصة « ثقب الدودة » يفض ستيبيل عضو اتحاد الشبيبة
الشيوعية أباه يعقوب اليكسيفيتش المالك بقضا شديدا ، ومن أجل
ذلك نرى يعقوب اليكسيفيتش وابنه الأكبر يدبجان ستيبيل عضو الاتحاد .
ويوضح شولوخوف - وهو يقص عن الحقد الهائل لأعداء الثورة
وإعمالهم الدموية - انه على العكس ، في البيئة القوزاقية الثورية التي
كانت مجبرة في صراعاها القاسي العنيف على ان تتخلف عن ركب الحياة
الجديدة ، قد ظهرت فيها صفات عالية ونبيلة ، كالاستعداد للتضحية ،
والشجاعة البطولية ، والانسانية الاصيلة .

ومن الاهمية ان تنبه الى ان شولوخوف رسم في « أقاصيص
الدون » صورة لينين التي مثلت « الحارث بالحراث » ، وأيقظت
الشعب للنضال من أجل حياة أفضل .

وإذا كان الصراع الطبقي في « أقاصيص الدون » قد أنتج الصور
الرئيسية في الحدود الضيقة للأسر القوزاقية ، فانه قد أضاف عملا
آخر مختلفا تماما لهذا الموضوع في « الدون الهادي » وهو الانتاج
الرئيسي للكاتب .

الدون الهادي

و « الدون الهادي » ينتمي الى مجموعة من أبرز الانتاج الفني
المشهور جدا في النثر السوفييتي .

يقول كالينين في حديثه الى الكتاب الشبان في عام ١٩٣٤ :

« .. « الدون الهادي » أنا اعتبره أروع انتاجنا الفني ، فهو
في بعض المواضع مكتوب بقوة خارقة للعادة » .

وماكسيم جوركي يعتبر « الدون الهادي » من تلك الكتب التي
« أعطتني صورة واسعة حقيقية وعبقرية للحرب الاهلية » .

واعتمادا على نجاح الادب السوفييتي في رسم أفضل صورة
للحرب الاهلية ، فان شولوخوف فكر في ان ينتج عملا ابداعيا عميقا
وأصيلا .

في « الدون الهادي » يبرز شولوخوف أمامنا كفنسان خبير في
القصص البطولي قبل كل شيء ، وبإفاضة وحرية ، يعرض الفنان صورة
تاريخية ضخمة للاحداث الدرامية العاصفة التي يتضمنها « الدون
الهادي » في مدى عشر سنوات بين عام ١٩١٢ و عام ١٩٢٢ .

والعمل في « الدون الهادي » يبرز في مخططين ، أحدهما

القرى التي استقبلتها الثلاثينيات استرغبت انتباه الكاتب .
وفي عام ١٩٢٢ نشر شولوخوف الكتاب الاول من روايته الجديدة :
« استصلاح الارض العذراء » ، ومن أجل ان يكتب مؤلفه الجديد
متأثرا بحرارة الاحداث كان يقطع الوقت بالعمل في « الدون الهادي » .
والمساهمة الحية في المصير الادبي لشولوخوف قدمها جوركي
وسيرافيموفيتش ، فقد كتب سيرافيموفيتش مقدمة « لأقاصيص الدون »
وهو أول من أشاد بالمواهب البارزة عند الكاتب الشاب ، ومعرفته بالحياة
والقوة الإبداعية الكبيرة ، وجمال التعبير اللغوي الناصع .

كما أعانه جوركي على طبع الكتاب الثالث من « الدون الهادي »
الذي حاول بعض النقاد ان يحطوا من قدره .

وعلى قدر نمو النشاط الادبي لشولوخوف ، كان يتطور في عمله
الاجتماعي . ففي عام ١٩٢٧ انتخب ممثلا في المجلس الاعلى للاتحاد
السوفييتي ، وفي عام ١٩٣٩ انتخب عضوا عاما في أكاديمية العلوم .

وفي سني الحرب العالمية الكبرى نال شولوخوف شرف المساهمة
في نضال الشعب السوفييتي ضد الغزاة الفاشيست ، وكتب سلسلة
من الموضوعات والقصص بعنوان « علم الكراهية » عام ١٩٤٢ ، فصح فيها
بكل قواه الفدائية الاكيدة للجيش الهتلري ، ودعا الشعب السوفييتي
للنضال بلا هوادة ، والى الفداية ، وانكار الذات ، والاستشهاد ضد
الحشود الفاشستية ، في سبيل الحزب ، واستقلال الوطن .

وفي نفس الوقت أقدم شولوخوف على كتابة رواية عن الحرب
العظمى ، بعنوان : « الذين حاربوا في سبيل الوطن » ، وقد كتبت
فصول الرواية كل على حدة في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . والفصول التي
نشرت في الصحف عام ١٩٤٩ تصور المارك البطولية العنيفة التي
خاضها الجيش السوفييتي عام ١٩٤٢ في المشارف البعيدة لنهر الفولجا .

الملاح الرئيسية لانتاج شولوخوف

كل حياة شولوخوف ، ونشاطه الادبي مرتبط بالدون ، والكاتب
يحب مسقط رأسه حبا حارا ، ومن حياة قوزاق الدون يستمد
الموضوعات والصور ، ومادة مؤلفاته الفنية .

وقد نوه بذلك شولوخوف نفسه ، فقال : « ولدت في الدون ،
وهناك تعلمت ، وتكونت كإنسان وككاتب ، وتربيت كعضو في حزبنا
العظيم ، وظهرت كمواطن لوطني القدير ، ومع ذلك فأنني أقول بفخر
واعزاز ، انني برزت كمواطن لوطني باقليم الدون » .

انه رائع في وضوحه وقوة إبداعه التي وهو يصور حياة قوزاق
الدون ، وتلك من الخصائص الهامة في العمل الإبداعي لشولوخوف .

وهذا التحديد لا يعني ان شولوخوف كاتب محلي محض « اقليمي »
الموضوع ، بل على العكس ، فانه بمادة الحياة ، واسلوب قوزاق الدون ،
استطاع ان يكتشف المفزى العميق للتطور التاريخي الكبير .

وهنا يجب ان نشير الى الخاصية الثانية الهامة لإبداعه ، وهي
طبع هذه الفترات المرحلية المتحولة من حياة البلاد بالطابع الفني ، حينما
كان نضال العالم الاشتراكي الجديد ضد العالم القديم ، والبورجوازية
ينطلق بأقصى حدته ، وبالشكل الدرامي الصارم .

فالحرب الاهلية في « الدون الهادي » ، وتعميم الوسائل
التعاونية في « استصلاح الارض العذراء » ، والحرب العالمية الكبرى
في « الذين حاربوا في سبيل الوطن » - هذه الفترات الثلاث من حياة
الشعب يتركز فيها اهتمام الفنان !

ومن هذه المجموعة تبرز ثلاثة معالم لموهبة شولوخوف ، هي : اتساع
البطولة ، والميل الى الصور الفنية الاثرية الضخمة ، والميل الى تعميم
النتائج الاجتماعية العميقة .

وأبطال روايات شولوخوف أناس كادحون بسطاء ، أفكارهم الحزينة
والفرحة ، وطموحهم الى السعادة والعدالة ، ونضالهم من أجل حياة
جديدة تسترعي انتباه الفنان على الدوام .

ومن الضروري ان نشير في النهاية الى الخصيصة الجوهرية
لطريقة إبداع الكاتب ، وهي عداوته لاي عمل غير مثالي ، فمن الثابت

تاريخي ، والاخر شخصي ، ولكن كلا هذين المخططين معطى في وحدة غير متفصلة .

والنموذج البطريكي للشباب ميليخوف يتأثر في المخطط الشخصي - في حبه لأكسينيا ، وفي المخطط الاجتماعي - باصدام جريجور بالنتفضات المنيفة للحقيقة التاريخية المتلائمة جدا مع عقدة الرواية . في المخطط الشخصي - موت أكسينيا ، وفي المخطط التاريخي - هزيمة حركة القوزاق البيض ، والفوز النهائي للحكم السوفييتي في السون .

في كلا المجلدين سطور موضوعية - للمخططين الشخصي والتاريخي - يظهران فيها متكاملين تماما . والفشل الفاجع للبطل منطقي طبيعي ومنجز .

في الكتب الاول عمل يبدأ في فترة ما قبل الحرب ، وينتهي في السنة السادسة عشرة ، ويتحدث فيه عن الحياة ، وعن ظروف المركز وعن شباب جريجوري ميليخوف ، وعن أحداث الحرب الاستعمارية .

أما الكتاب الثاني فيضم الفترة من أكتوبر عام ١٩١٦ الى ربيع عام ١٩١٨ ، وأيام فبراير ، وأكتوبر العظيم عام ١٩١٧ ، وابتداء الحرب في السون - هذا ما يحتل مركز الكتاب .

وأما الحدود الزمنية للكتاب الثالث ، فمن ربيع عام ١٩١٨ الى مايو ١٩١٩ ، ويصور فيه النضال العنيف للشعب السوفييتي ضد الحرس الابيض المناوىء للثورة في الجنوب .

وفي النهاية يحتوي الكتاب الرابع على الفترة من ربيع ١٩١٩ الى عام ١٩٢٢ ، ويحكي عن الهزيمة الساحقة لحركات القوزاق البيض ، والنصر النهائي لسيطرة الحكم السوفييتي على السون .

وعلى هذه الصورة ، فالحرب الاستعمارية ، والثورة ، والحرب الاهلية ، وأمثال هذه الاحداث التاريخية ، لها انعكاساتها الفنية في « الدون الهاديء » .

والاحداث في الرواية تجري في الجهة الغربية ، من بطرسبرج وموسكو ، الا ان الاماكن الرئيسية للاحداث كانت في مركز القوزاق . والمصائر التاريخية لقوزاقية الدون - ابان الحرب والثروة -

أساسية جدا في محتويات الرواية التاريخية البطولية لشولوخوف . فقد أعطى شولوخوف مزيدا من الاهمية والمغزى الكبير للمسألة الاجتماعية عن طريق الثورة والاشتراكية لجماهير الشعب الواسعة .

وتحول جماهير الشعب الى الاتجاه الثوري والاشتراكي يتكشف في مصائر القوزاق ، وهذا يبرر المميزات الخاصة لتصوير الصراع الطبقي في « الدون الهاديء » .

وقد امتاز القوزاق بعدد كبير من الخصائص الاشتراكية الفريدة في نوعها ، ففي مجرى السنوات القيصرية الطويلة شاهد القوزاق كيف ان الخدام المخلصين ليسوا بمقدار ما يناضلون ضد العدو الخارجي بل بمقدار نضالهم ضد الشعب الثائر ، وضد الحركات التحررية .

فالقوزاق كانوا موضوعين تحت ظروف خاصة متميزة ، انهم في الغالب لم يعرفوا هذا البؤس والضيق اللذين صير عليهما الانسان الروسي الكادح ، وقد اشتعلت نار العداوة بينهم وبين الاقلية الوطنية ، وغير القوزاق جميعا « الغرباء » ، وقد قوى ذلك من شعور القوزاق

بالتفوق الطبقي الذي يجعل من الصعب تفلل المبادئ الثورية بينهم ، والذي جعل مجموعة من القوزاق في سنوات الحرب الاهلية اداة طبيعة في يد الحرس الابيض المناوىء للثورة ، ولكن لما كان في الدون بطبيعته نظام طبقي ، فان نضال القوزاق الكادحين قد اتسع ضد الملاك والمستغلين

على ان المرشدين والموجهين في الظروف السالفة قد أضافوا الى الحرب الاهلية في الدون حدة خاصة ، وخشونة قاسية . وميزة « الدون الهاديء » ان شولوخوف حاول بكل قواه ان يكشف

عن الحدة غير العادية ، والعنف الذي لم يسبق له مثيل في بيئة القوزاق ابان الماركس الطبقي .

لم تكن الحرب الاهلية من أجل الحياة ، ولكنها كانت حرب الفناء بين اثنين من المسكرات الرئيسية ، معسكر الشعب الثائر بزعامة

الشيوعية ، والمعسكر المناوىء للثورة ، المعز من الملاك والبورجوازية والاستفلاية ، وهاتان الصورتان الرئيسيتان المتعادلتان نجد انعكاسهما في « السون الهاديء » .

فترى هناك من ممثلي الاتجاه الاول ، المالك ليستينتسكي ، والمستغلين اخوان كورشونوف ، والتاجر مخوف ، وقواد الحرس الابيض وضباطه الاشرار ، والجلادين والمغتالين ، أعداء الشعب

السوفييتي ، الحرومين الشرفاء من ذوي الضمائر ، وخطتهم واضحة جلية ، فهم يريدون ان يفرقوا في الدماء الشعب الثائر ، وان يعيدوا نظام الحكم القيصري العتيق ، وان يمتلكوا الفرصة من جديد ليستفيدوا

بجميع خيرات الحياة ، ويستغلوا العمال والفلاحين بلا رحمة . وقد خاض الشعب الثائر ضدهم حرب الموت بحماسة الشجعان ، وعبر عن مصالح الثوار بوديلكوف ، ويونتشول ، وشتوكمان ، وكوتلياروف ، وميخائيل كوشيفوي ، وبوجودكا .

لكن السمة الفريدة للدون الهاديء تبدو في أنه لا يضع في بؤرة اهتمام الكاتب ممثلي هذين المعسكرين الطبقيين الاساسيين المتعارضين ولكن يضع في هذه البؤرة البطل المعبر عن المزاج النفسي للمتريدين

المتقلبين بين القوى الاجتماعية جريجوري ميليخوف . فحياة ميليخوف في سنوات شبابه ، وقصة زواجه من ناناليا ،

وحبه لأكسينيا واشتراكه في حرب الاستعمار ، ثم في الحرب الاهلية ، واخيرا موته الادبي - هذا هو ما يرسم الاساس الموضوعي للرواية .

وجريجوري ميليخوف لم يوضع في المركز من « الدون الهاديء » بمعنى انه منح عناية أكبر من الجميع فحسب ، بل لان كل احداث الرواية تقريبا ، اما صادرة عن ميليخوف ذاته ، واما أنها هكذا بصورة

او باخرى مرتبطة به .

ماذا اذن يمثل جريجوري ميليخوف نفسه ؟

جريجوري ميليخوف

ميليخوف مرسوم في هذه الرواية بشكل غير مالوف من جوانبه المتعددة . فسنوات شبابه شواهد على اساس الحياة والظروف المحيطة

بمركز القوزاق ، وشولوخوف يصور بصدق نظام الحياة البطريكية للمركز . ويرى بوضوح أمام القارئ خصائص الحياة القوزاقية ، كروح

الاقدام ، وحب الحرية ، والمفاهيم العليا لشرف المحارب ، وبجانب ذلك القسوة الوحشية ، والظلم ، والحقد الاعمى على الدخيل والاجنبي .

ففي الفصول الانفتاحية للرواية ، التي ينظمها التمهيد المنقطع النظير « للدون الهاديء » تصوير للمشهد الوحشي البشع للتكبير بجدة جريجوري التي ارتاب القوزاق في اشتغالها بالسحر .

وملامح الظلم والوحشية يعبر عنها مشهد المارك الدموية عند الطاحونة بين القوزاق والفلاحين الأوكرانيين الوافدين عليها .

وصورة جريجوري ميليخوف تتشكل تحت تأثير هذه الانطباعات المتناقضة . فمركز القوزاق يربى فيه - منذ السنوات المبكرة - روح الاقدام ، والاستقامة ، والشجاعة ، والى جانب ذلك يوحى اليه بكثير

من الاراء التقليدية الخاصة المتداول من جيل الى جيل . وجريجوري ميليخوف ماهر ، وهو بطبيعته مخلص ، ومن الملامح التي تحدد صفاته ، طموحه المتحمس الى الحقيقة والى العدالة .

وهذا الانسان الصريح الخطير ذو مشاعر مضطربة ومعقدة ، ومع كل هذا فان شولوخوف يلوم جريجوري بشدة وبطريقة سافرة على كل من سلوكه المنهار ، وافلاسسه ، وطريقته في الحياة .

ومأساة ميليخوف تنحصر في انه انفصل عن الشعب ، ولم يستطع ان يمتزج بالثورة ، بل وقع بقوة الظروف القهوية في معسكر اعدائها الاشرار ، وكان وقوعه في المآزق الذي وقع فيه ، والفشل الخاص الخائق الذي حاق به - جزءا عادلا للانشقاق على الشعب ، وعلى الثورة الحقيقية العظيمة .

وجريجوري ميلخوف بوضعه الاجتماعي فلاح متوسط الحال ، وهو في نفس الوقت مالك ، وعامل دروب ، ولذا فشعور المالك يفصله عن الثورة ، ويربطه بعالم البورجوازية . وشعور عامل الدروب ، على العكس ، يقربه من البروليتاريا الثائرة ، ويسلحه ضد المستغلين والظالمين .

وهذه النزعات المتعارضة نفوى وبتعمد بالاراء التقليدية الطبغية الخاطئة ، والمذبذبة بين القطب الطبقي غير المسالم ، وبين المناضلين للمعسكرات المادية ، والبحث عن « الطريق الثالث » الخيالي الموهوم في الثورة ، الذي ليس مع الحمر ولا مع البيض - هو ما يميز خط سير ميلخوف .

وفي الفصول النهائية للرواية يفضح شولوخوف التخريب المزيج لبطله ، جريجوري ميلخوف ، الذي فقد أحب انسان اليه - أكسينيا ، ففقدت الحياة في نظرة جميع أفكارها ، وجميع معانيها ، وهو كذلك يعترف من قبل بالمأساة المؤلمة لوضعه ، فيقول : « ارتدت عن البيض ولم ألتصق بالحمرة ، وهانذا أطفو هكذا كالسيخ في حفرة الثلج » .

أما الآن وقد سنع أكسينيا فانه يدرك أن الجميع اموات : « انه سيع منها بثقة مؤكدة في انها سيقترفان الى امد قريب ، وبكيفية كذلك على قمة المقبرة بالطين الاصفر الرطب ، وركع طويلا على ركبتيه بالقرب من القبر ، مطاطنا رأسه ، محركا لها في صمت ، وهو الآن في غير حاجة الى ان يعجل ، فالجميع كانوا امواتا » .

في صورة جريجوري ميلخوف مكونات عامة كبيرة ومميزة . فذلك المآزق الذي وقع فيه ميلخوف لا يعكس - بلا شك - خطوات التطور الجارية في جميع القوزاق ، لان صفات جريجوري مكونة من اشياء اخرى لسامانه الاجتماعية ، من حظه المحزن من التعليم ، حظ الانسان غير الواجد طريقه الى الثورة .

فصورة ميلخوف - كما يؤكد الكاتب - صورة انسان منعزل عن الشعب ، وعن الواقع الثوري ، غير واجد في نفسه القوة الكافية ليختار الطريق السليم ، ولا مفر له من ان يحمل المأساة الخلقية .

وانفصال جريجوري هذا عن الشعب لبناء حياة جديدة ، يعرضه شولوخوف في احلام ميلخوف التي تحمل بوضوح المميزات الرمزية له : « جريجوري يرى في حلمه سهلا واسعا منبسطا ، معرضا لغارات الفرق العسكرية ، ومن مكان ما يندفع اسطول من بعيد ، ولساقفة طويله ، حينئذ يذكر انه عند حزام السرج ، وبفوة وضع رجله في الركاب الايسر ، وزحف السرج تحته ، فوثب عن الحصان وهو غارق في الخجل والخوف ، ليضيق حزام السرج . وفي ذلك الوقت سمع جلبة مفاجئة ، وفقعة سنابك الخيل نندفع بسرعة ، والفرقة العسكرية تسير الى الهجوم بدونه .. » .

وهكذا يكشف شولوخوف في صورة ميلخوف عن الافلاس المطلق ، وعن خطأ « الطريق الثالث » في الثورة ، ويظهر التحيز ، والموت الفاجع للانسان المنفصل عن الشعب الثائر .

وعبر كل الرواية نمر صورة أكسينيا التي رسمها شولوخوف بمهارة فائقة . ولم يعرف الادب العالمي انتاجا اخر بذلك العمق ، بحيث يطلع على العالم الداخلي للزوجة الفلاحة البسيطة بنت الشعب .

فاكسينيا طبيعة معقدة ، وهي بالرغم من ذلك غنية بالشاعر القوية العميقة . وحظ أكسينيا كذلك محزن ، طفولة صعبة ، وزواج بانسان لا يحبه لكن حظها المحزن كان في العادة كثيرا على امرأة من الشعب .

وحبها لجريجوري عظيم ، يستغرق كل حياتها . لقد ركزت فيه كل ما كان اكثر اشراقا في حياتها . فهي الرفيق الامين ، والصديق الحميم لجريجوري ، انها لم تشاطره كل مناعب حياته ، ولم تحتمل كل الاهانات ، وكل المرارة الناشئة عن موقفه المراوغ فحسب ، بل اكثر من ذلك صارت ضحية بالمعنى الدقيق لاطع ميلخوف المشؤمة .

ان أكسينيا نشاطر جريجوري حظه المحزن ، ومع ذلك لم تستطع ان تجد طريقها في الحياة ، ولم يكن حبها لجريجوري قادرا على ان يمنحها السعادة الحقيقية ، وان يجعل حياتها مهمة او ذات مغزى .

فهذا الحب في نهاية النهاية قاد أكسينيا الى الموت . بهذه المهارة الفنية العظيمة يكتشف شولوخوف العالم الداخلي لابطاله ، والكاتب يستخدم جميع الوسائل الفنية ليضفي عليهم السرور او الالم ، والحب ، والاسى .

ويفتح القسم السابع في الرواية بمشهد رائع في تعبيره الفني ، فبعد مرض أكسينيا الثقيل المصنعي تعود اليها القوة والصحة ، وسرعان ما تتلاعب بحياتها الاحداث المحزنة التي تقودها الى الموت . انها الان مفعمة بالسرور ، والاحساس بالسعادة التي لا تعرف لها سببا ، وما هي ذي صورة الربيع كما تحس بها : « بلونه ، وبروعة الجديد ، وبالأغراء قدم لها العالم . ويعينين لامعنين نظرت حولها بقلق ، مسترجعة في ذاكرتها حفيف ثوب الطفولة ، ومتخيلة طريقها الضبابي الطويل ، وفود اشجار اتفاح المترعة في الحديقة ، والبستان المبلل بالندى ، والطريق وراها مفسول من الجرى العميق للسنوات الماضية ، كل شيء يبدو لها جميلا بدرجة لم يسبق لها مثيل ، وكل شيء يصطبغ بلون كثيف او رقيق كأنه شمس الخريف . انها - بلا مبالاة - تستمتع بلذة وهي تعود الى حياتها . ان أكسينيا تشعر برغبة عارمة في ان تلمس بيديها كل شيء ، وان ترى كل شيء . انها ترغب في ان تلمس كرمسة العنب الاسود المبللة بالندى ، وان تضغط خدها على غصن التفاح الرمادي الفاتح ، المخملي الملمس ، وتريد ان تسير وسط الانقراض والخرائب ، وان تمشي في الوحل بلا طريق الى مسا وراء الوهدة الواسعة ، حيث نخضر القصة الخرافية ونصب من ضباب الحقل الشتوي البعيدة .. » .

لقد استطاع شولوخوف ان يعرض هنا بفنه الرفيع المتقن مغان الربيع ، بنوره الساطع ، وجماله ، ومسرته ، في وحدة عضوية من خلال مزاج أكسينيا .

وفي هذا الفصل السابع يصور الكاتب مشهدا اخر . فأكسينيا تموت ، ويدفنها جريجوري ، وهو يعرف بوضوح مؤلم انها نهايته ، فقد اصابته فاجعة مطبقة . فان في دفن أكسينيا وصفا لصورة فريدة ، ان جنازتها سير قريبا من المرساة ، في الضوء الساطع لصباح يوم من ايام الصيف .

ومع ان شولوخوف قدم في المقطوعة الاولى من الرواية نفس الصورة الطبيعية ، والاحساس بالسرور ، الا ان الموضوع الآن هو الوسيلة لتصوير المنظر الطبيعي للافتتاحية المشؤمة لشاعر جريجوري الحزين :

« في الضباب الدخاني ثور ربح لافحة ، اقوى من حرارة الشمس ، واجمل ما فيها انها فضضت رأس جريجوري المغطى بالشيب الكثيف ، وانحدرت في فزع وشحوب على وجهه الجامد ، كما لو كان

فندق نيوبالاسين

ادارة : فتحى نونى

**جناح خاص
للعائلات
أسعار معتدلة
مصعدان حديثان**

**وسط راق
خدمة ممتازة
مياه ساخنة
تليفونات بالغرف**



١٧ شارع سليمان الحلبي
(دوربر سابقا) القاهرة
تلفون سينالوكس بمارالدين

ت : ٤٥٩٣٦
س : ٧٩٧٩١

New Palace Hotel 17 Sh. Soliman el Halaby
Telephone 45936 Cairo

مستيقظا لتوه من حلم مزعج ، لقد رفع رأسه ، فرأى فوفه السماء السوداء ، وفرص الشمس القائم الفانن المتألق .

تصوير البلشفيك

الى جانب جريجوري ، واكسينيا - البطلين المركزيين للرواية - فان في معرض الصور الكثيرة لشخصيات « الدون الهادى » مكانة هامة ، يحتلها ممثلو الشعب الثائر - البلشفيك - الذين تصورهم الرواية ، ومن بينهم العمال : الحداد جارائج ، والبراد شتوكمان ، والميكانيكي كوتلياروف ، والعاملة بوجودكا . والرواية تصفهم بالاخلاص الذي لا حد له لقضية الشعب ، والاستعداد للتضحية بانفسهم ، باسم المثل العظيمة للمجتمع ، والقيم الاخلاقية العليا ، فيالشعور بالقوة الكبيرة ، والنظام ، وتمام الحكمة يتميز حب بوننشوك ، وأنا بوجودكا . واهم خاصية في تصوير هؤلاء الابطال تبدو في ان شولوخوف اهتم بالإشارة الى جلدتهم وصبرهم ونضالهم العنيف من اجل التعليم السياسي للجماهير ، ومن اجل التربية الثورية للشعب . والثاني في هذه الفكرة احاديث جارائج مع جريجوري ، والاكثر مثالية هو العمل الاعلامي للمرشد البلشفيكى شتوكمان ، والشيعيون المعنيون في الرواية امثال المعبرين عن الاماني المضيئة للشعب ، وامثال القادة المعلمين للجماهير .

ولقد نجح شولوخوف اكبر النجاح في تصوير ميخائيل كوشيفوي ، نجاحا يقترب به من قرينه جريجوري ميليوخوف القوزاقي الاصيل ، بالرغم من منشئه ، فانه ترعرع هو وجريجوري معا في مزرعة تيارسك ومع ذلك سار كوشيفوي في طريق مختلف تماما . ولقد فارق شولوخوف بين كوشيفوي وميليوخوف بطريقة مباشرة ، ويقول جريجوري ان كوشيفوي ينتمي الى هؤلاء الناس الذين كان واضحا منذ البداية ان « طريقهم يتجه مباشرة الى نهايتهم » وهو يتحدث عن هذا بشعور الحسد البين .

وكوشيفوي مرسوم في صور متعددة الجوانب . فشولوخوف يلفت النظر الى حبه للحياة ، واشواقه الداخلية ، وطاقاته الجيانشة ، وحفده الذي لا مثيل له على الاعداء : « اية نظرة الى الاعداء .. الى البياض الناصع تجد عندي قبضة صلبة !! » هكذا يقول .

ومن الطبيعي تماما ان يتحول في نهاية الرواية الى رئيس للمزرعة ، وان يتقدم لها كرئيس للسلطة السوفيتية المنتصرة .

واذا كان في تصوير جريجوري ميليوخوف قوة مدمرة لانحياز القوزاق للملاك والطبقة الرجعية ، فان في كوشيفوي على العكس تجسيدا للمبادئ الثورية الديمقراطية الصحيحة ، التي سادت في نهاية النهايات بين القوزاق ، وشقت طريقها في الاتجاه نحو الحكم السوفيتي ، والاتجاه الى الاشتراكية .

هذه المبادئ يعبر عنها قائد قوة القوزاق بوديلكوف . وفي دور بوديلكوف واحد من قادة الفكر الشبان المؤيدين للسلطة السوفيتية في الدون . انه كان رئيسا للجنة الحرب الثورية ، ومندوبا حربيا ، وقائدا لجيش الدون السوفيتي . وفي الكتاب الثاني من « الدون الهادى » يرسم شولوخوف صورة لبوديلكوف - لتشاطه في الدون ، وموته بيد الجلادين البيض .

و « الدون الهادى » مترجم الى كثير من اللغات الاجنبية ، وقد نال تقديرا عاليا ضخما ، وهو ينتمي الى عداد التحف الرائعة للواقعية الاشتراكية .

واذا كان شولوخوف يتحدث في رواية « الدون الهادى » عن المرحلة الاولى من الثورة ، وعن فترة الحرب ، وكيف تغلب قوزاق الدون على باطل الرجعية ، فانه في رواية « استصلاح الارض العذراء » يصور مرحلة التحول الاشتراكي وبناء الاشتراكية في القرية بتمميم الوسائل التعاونية .

رضوان ابراهيم

(عن الروسية)

ظهر هذا الشهر

عن

دار العلم للملايين
بيروت

- | | |
|-----------------------------|---------------------------|
| للدكتور فاخر عاقل | ١ - علم النفس |
| للدكتور صبحي الصالح | ٢ - النظم الاسلامية |
| للدكتور طه حسين | ٣ - جنة الحيوان |
| للاستاذ حسن عبد الله القرشي | ٤ - أنا والناس |
| للاستاذ محمود كامل المحامي | ٥ - القانون الدولي العربي |
| للاستاذ توفيق يوسف عواد | ٦ - غبار الايام |

يظهر في فبراير :

- | | |
|------------------------------------|-----------------------|
| للدكتور حسن صعب | ١ - علم السياسة |
| للاستاذين بشير الكلوب وسعود الجلاد | ٢ - الوسائل التعليمية |
| ترجمة الأستاذ ابراهيم العريض | ٣ - رباعيات الخيام |